القسم الأول

الدراسة

الباب الأول

في الحديث عن صاحب القصيدة وصاحب الشرح
(المولى خضر بك والمولى شمس الدين أحمد بن موسى الخيالي)

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

عصر المولى خضر بيك والمولى الخيالي

لقد عاش المولى خضر بن جلال الدين والمولى أحمد بن موسى الخيالي في القرن التاسع الهجري ؛ القرن الخامس عشر الميلادي ؛ أيام الحكم العثماني . والهدف من هذا الفصل هو إعطاء صورة موجزة للقارئ عن العصر الذي عاش فيه هذان الإمامان الجليلان ، ولا أقصد به التفصيل والإطناب بذكر جميع الأحداث والانقلابات التاريخية في كل أرجاء العالم الإسلامي خلال هذا القرن . وللتاريخ رجاله وللإفاضة فيه مجاله . والذي يهمنا هنا هو الحديث عن هذا العصر موجزا لاسيما في النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية .

* * *

المبحث الأول

في الحالة السياسية

منذ العهد العباسي بدأ الأتراك في الظهور في أدوار هامة على مسرح التاريخ الإسلامي حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة كانت على صلة قوية بخلفاء الدولة العباسية ؛ عرفت في التاريخ بالدولة السلجوقية [1] ، لعبت دورا كبيرا في تأخير زوال الخلافة العباسية حوالي قرنين من الزمن حيث أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض في ظل سيطرة البويهيين ؛ الشيعة الروافض ، واستطاعت أيضا أن تخيب آمال الدولة العبيدية الشيعية في مصر في تحقيق أغراضها الهادفة لتوحيد المشرق العربي تحت راية الباطنية العبيدية الشيعية .

وهكذا أصبحت الجهود التي بذلتها الدولة السلجوقية ممهدة لتوحيد المشرق الإسلامي والذي تم على يد السلطان العادل صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وتحت راية الخلافة العباسية .

وعندما جاء الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي كانت تسود العالم رهبة وذعر من الإمبراطورية المغولية التي أقامها جنكيز خان . وكان المغول وقتها على دين السامانية ؛ لذا كان ذعر المسلمين عظيما .

في هذا الجو المشوب بالخوف والهلع اضطر الأتراك المسلمون ــ البالغ عددهم حوالي نصف مليون ــ إلى هجرة وطنهم . وكان من بينهم عشيرة صغيرة واصلت السير نحو الأناضول ، كان يرأسها رجل اسمه « كوندوز آلب » ــ المتوفى فى

---

(١) انظر قيام الدولة العثمانية للدكتور عبد اللطيف دهيش: ١٢ .

عام ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م ـ ، خلفه بعد وفاته ابنه أرطغرل ـ المتوفى عام ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م ـ والد عثمان ؛ مؤسس دولة آل عثمان ، وعرفت الدولة العثمانية باسمه . وكان صاحب سيرة حميدة ، استطاع بموهبته الفطرية أن يسجل اسمه في سجل الخالدين[١] .

ثم عقبه السلاطين العثمانيون ، ـ وعددهم خمسة وثلاثون سلطانا[٢] ـ ، لكل واحد منهم خدمات مشكورة تجاه الدين الإسلامي والحضارة الإنسانية . لقد قامت إمارة الثغر العثمانية (المستقلة) عام ١٢٩٩ الميلادي وانتهت السلطنة عام ١٩٢٢ الميلادي . وهذا يعني أن العثمانيين استطاعوا أن يحافظوا على وجودهم طيلة ستة قرون وربع قرن[٣] .

أما بالنسبة للقرن التاسع الهجري فكانت الدولة العثمانية فيه في أوج ازدهارها ، ولقد حققت إنجازات عظيمة في الانتشار والفتوحات ؛ طورت مساحتها خلال ١٠٨ سنوات ، وفي عهد ثلاثة من أمرائها من ١٠٠٠ كم٢ إلى ٥٠٠٠٠٠ كم٢ ، وكان هذا في فترة إمارة الثغر العثمانية[٤] .

إلى أن جاء «بايزيد الصاعقة» الذي يعرفه العرب ببايزيد الأول المتوفى عام ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م واستطاع عن طريق السلطان «برقوق» المملوكي أن يحصل من الخليفة العباسي في القاهرة على لقب السلطان . فأصبحت الإمارة العثمانية سلطنة رسميا[٥] . وكان هذا تتويجا شرعيا لواقع العثمانيين . وشرع «بايزيد» في إقامة علاقة ودية مع الصرب لاتخاذ دولة الصرب كحاجز بينه وبين المجر ، ثم استطاع أن

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة للدكتور محمد حرب : ٩ ، ١٠ .

(٢) العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ، رسالة الدكتوراه للدكتور فائق بكر الصواف ، في كلية اللغة العربية في الأزهر بالقاهرة : ١٤ .

(٣) العثمانيون في التاريخ والحضارة للدكتور محمد حرب : ٣٠٣ .

(٤) المرجع السابق : ٣٠٢ .

(٥) إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية لبرنارد لويس : ٣٩ ، ٤٠ .

يضم بلغاريا إلى دولته . وكان لسقوط بلغاريا صدى هائل في أوربا وتحركت القوى الصليبية للقضاء على الوجود العثماني في البلقان . ولكن محاولتها باءت بالفشل ، وخرج العثمانيون من معركة «نيكو بوليس» (Nicopolis) بغنائم كثيرة وفيرة ، ووقع كثير من أشراف فرنسا في الأسر[١] .

ثم جاء «تيمور لنك» وحارب «بايزيد» في واقعة «أنقرة» عام ١٤٠٢ الميلادي وهزم بايزيد وأسر ثم مات في الأسر . وكان لبايزيد خمسة أبناء فبذر «تيمور لنك» بذور الشقاق والخلاف بين هؤلاء الأبناء المتنازعين على العرش ليؤجج به نار الفتنة ويزيدها ضراما . وهكذا تعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي يمثل في نشوب حرب أهلية في الدولة بين أبناء «بايزيد» واستمرت هذه الحرب عشر سنوات (٨٠٦-٨١٦ هـ / ١٤٠٣-١٤١٣ م)[٢] .

لقد كانت هذه المرحلة مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثل في فتح «القسطنطينية» . ولقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى أن لا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبارات القاسية وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث المريرة .

لقد تصدى العثمانيون لمحنة «أنقرة» بالرغم ما عانوه من خلافات داخلية إلى أن انفرد «محمد الأول» بالحكم في عام ١٤١٣م / ٨١٦هـ حارب الجميع وانتصر ، وبدأ في عملية توحيد أجزاء السلطنة . ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية ، نظرا لما قام به من المهام في فترة عصيبة مرت بها الدولة[٣] .

ثم تولى السلطان «مراد الثاني» أمر الدولة بعد وفاة أبيه «محمد الأول» عام ٨٢٤هـ / ١٤٢١م ، وقام بالقضاء على العوائق في كل من ألبانيا والمجر وحاصر بلغراد ستة أشهر كاملة (فتحها العثمانيون بعد ذلك عام ١٥٢١ م)[٤] . وبعده تولى

---

(١) الدولة العثمانية ؛ عوامل النهوض وأسباب السقوط لعلي محمد الصلابي: ٦٩ .

(٢) المرجع السابق: ٧٢ وإستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية لبرناد لويس: ٤١ - ٤٣ .

(٣) الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط لعلي محمد الصلابي: ٧٢ .

(٤) العثمانيون في التاريخ والحضارة للدكتور محمد حرب: ٣٠٣ .

الحكم «محمد الثاني» الذي نعرفه باسم «محمد الفاتح» والذي بدأ به ــ في العرف التاريخي الدولي ــ العصر الحديث (Modern Age) في أعقاب انتهاء العصور الوسطى (Middle Age) .

فأول أمر اشتغل به الفاتح هو تتميم فتح ما سبق من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية حتى تكون جميع أملاكه متصلة ؛ لايتخللها عدو مهاجم أو صديق منافق ... وفي هذه الأثناء اكتشف قبر الصحابي الجليل سيدنا «أبي أيوب الأنصاري» رضي الله عنه الذي استشهد أثناء حصار القسطنطينية عام ٥٢ هـ . وبعد الفتح بنى له مسجد جامع ، وجرت العادة بعد ذلك أن كل سلطان يتولى يتقلد بسيف عثمان الغازي الأول بهذا المسجد الذي فيه قبر صاحب رسول الله ﷺ [(١)] . وهذا الاحتفال يعد بمثابة التتويج ، ولم تزل هذه العادة متبعة حتى الآن ــ حتى عصر المؤرخ محمد فريد بك[(٢)] .

كان العالم في تلك الفترة مشغولا بفتوحات العثمانيين في أوربا وبالصراع العثماني ــ الأوربي حين كانت الفكرة التي تحكم العثمانيين هي جمع العالم الإسلامي في دولة واحدة والانطلاق نحو الغرب بالجهاد . وقد حاول «بايزيد الصاعقة» تحقيق الوحدة الإسلامية بحرب المماليك في الشام ومصر وضم ممتلكاتهم إلى الدولة العثمانية لولا ظهور «تيمورلنك» عام ١٤٠٢ م ، والفاتح أيضا كان يطمح إلى ذلك لولا وفاته .

ومن أهم ما يذكر في محاسن الدولة العثمانية فتح «القسطنطينية» . وهي من أهم المدن العالمية ، وقد أسست عام ٣٣٠ م على يد الإمبراطور البيزنطي «قسطنطين

---

(١) وكل هذه الأمور مما يفعله الأمة خلفا عن سلف ، دون أي خلاف أو حتى تردد ، حاشا للأمة المرحومة أن تنزلق أقدامها إلى الشرك .

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك الطبعة الأولى ١٣١١هـ ٣٥ ، ٣٦ وإستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية لبرناد لويس: ١٦٣ . وقد تحدث الأستاذ الفاضل محمد خالد محمد عن سيدنا أبي أوب وحملته المباركة في القسطنطينية وما اتصل باكتشاف قبره الشريف واهتمام العثمانيين به في كتابه «موكب الشهداء»: ٢٦٧-٢٧٢ وانظر أيضا تبصرة الأدلة لأبي المعين النسفي: ٥٠٤ .

الأول» . وقد كان لها موقع عالمي فريد ، حتى قيل عنها «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها» .

وعندما دخل المسلمون في جهاد مع البيزنطيين كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة في ذلك الصراع ، ولذلك فقد بشر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها في عدة مواقف ، من ذلك ما حدث أثناء غزوة «الخندق» . ولهذا فقد تنافس الخلفاء المسلمون وقادتهم على فتحها عبر التاريخ ، طمعا في أن يتحقق فيهم حديث الرسول ﷺ «لتفتحن القسطنطينية على يد رجل ، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[1] .

وفي أبريل عام ١٤٥٣ م حاصر العثمانيون القسطنطينية برا وبحرا ، واستمر هذا الحصار مع مساجلات حربية من كلا الطرفين . ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى عام ٨٥٧ هـ الموافق لـ٢٩ من مايو عام ١٤٥٣ م إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة ، يحف به جنده وقواده وهم يرددون «ما شاء الله» ، فالتفت إليهم وقال لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم .

وإلى جانب هذا الفتح المبين للقسطنطينية فقد أدى «محمد الفاتح» للدولة خدمات كبرى فقد كانت إلى ذلك الحين دولة واسعة ولكنها ممزقة الأوصال تفصل بين أجزاءها أقاليم لم يتم فتحها ، فقام الفاتح بعملية الربط بينها . ونحسب أننا لايجانبنا الصواب إذا قلنا إن أعظم آثار «محمد الفتح» على الإطلاق هو جعله «إسلامبول» ــ وهي الآن إستامبول ــ عاصمة للدولة العثمانية ومركزا اقتصاديا هاما لها وميناء تجاريا قويا في ذلك العصر ، وذلك علاوة على تحويله لهذه المدينة إلى حاضرة إسلامية بحق[2] .

---

(١) مسند أحمد: ٤/٣٣٥ .

(٢) انظر دراسات في التاريخ العثماني للدكتور سيد محمد السيد: ٧٠ وانظر لمزيد من الدراسة كتاب المستشرق برناد لويس إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية مع تعليقات لازمة عليه للدكتور سيد رضوان على .

المبحث الثاني

في الحالة الاجتماعية

وينقسم المجتمع في الدولة العثمانية إلى فئتين كبيرتين ؛ هي فئة الحكام (العسكريين) وفئة الرعايا المحكومين . ووظيفة الرعايا ــ أيا كان دينهم أو كانت أعراقهم ــ أن يكونوا دعما لفئة الحكام عن طريق الإنتاج وتأدية الضرائب . أما وظيفة الفئة الحاكمة ــ وعلى رأسها السلطان ــ فهي تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وتطبيق القوانين العثمانية العرفية وضمان سيادة العدل في البلاد[1] .

كان المجتمع العثماني مجتمعا عسكريا ودينيا وإقطاعيا من نوع خاص وطبقيا. أما الطابع العسكري فتُصوِّره أقوى تصوير الفتوحات التي قام بها العثمانيون في جوف أوربا حتى وصلوا إلى مشارف «فينا» عاصمة النمسا فحققوا أمجادا عسكرية يفتخر بها الإسلام . ومن ثم كان الجيش بوجه خاص رمزا من رموز المجتمع العثماني ، وكانت المنشآت العسكرية وشؤون الإمدادات والتموين فوق مستوى عصرهم كما لم يكن في وسع أي دولة من دول الغرب أن تقاوم جيشها[2] .

كان المجتمع العثماني مجتمعا «ثيوقراطيا» أي دينيا ، كانت الأحكام في الدولة تستند إلى الشريعة الإسلامية تمشيا مع روح العصر الذي كان يضع الدين فوق كل اعتبار . وكان هذا الاتجاه الديني ملحوظا في الأنظمة الاجتماعية والسياسية بحيث لا نحتاج إلى الحديث عن ذلك بتفصيلات أكثر[3] .

---

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة لأكمل الدين إحسان أوغلي ، ترجمة صالح سعداوي طبعة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإستانبول سنة ١٩٩٩: ٥٢٦ .

(٢) انظر العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم حجاز رسالة الدكتوراه لفائق بكر الصواف ، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة: ١٩ .

(٣) البلاد العربية والدولة العثمانية لساطع الحصري: ٣٢ .

وكانت المساجد العظيمة والعديدة التي أنشأها السلاطين في الآستانة وأدرنة وغيرهما صدى لاهتمام السلاطين بمسايرة الشعور الديني المتأجج في نفوس الشعب ورغبتهم في اكتساب قلوب الرعية عن طريق الدين . وكان يلحق بالمسجد الكبير الفخم منشآت خيرية من مطاعم مجانية وتكايا ومدارس ومكتبات ، حتى كان المسجد بملحقاته وحدة مجمعة دينية خيرية[١] .

وكان من مظاهر المجتمع العثماني كذلك تشجيع التصوف بين الرعايا ، حتى قيل في هذا الصدد إن حياة الجماهير الدينية قد خضعت لتأثير مشائخ الطرق الصوفية أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة . وكان من أهم هذه الطرق الصوفية النقشبندية والمولوية واليكتاشية[٢] . وكان العالم المتخصص في الشريعة الإسلامية وأصول الدين يتمتع بتقدير عميق من الحكام والمحكومين على السوية . يتحدث المؤرخ المشهور الشيخ عبد الرحمن الجبرتي بإعجاب وفي عبارات سجعية عن اهتمام المجتمع العثماني «بإقامة الشعائر الدينية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء وأهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم وهابتهم الملوك وانقاد لهم الممالك والمملوك»[٣] .

حتى بلغ من قوة هذه الدولة وتأثيرها على الحضارات والمجتمعات العالمية إلى حد أن اختلط الأمر على الأوربيين في تلك الفترة ولم يميزوا بين لفظ «مسلم» ولفظ «تركي» كما خلطوا بين لفظ «العرب» و«الأتراك» . وإذا اعتنق شخص ما الإسلام قالوا عنه في أوربا إنه غدا تركيا عثمانيا[٤] . وهكذا كان المجتمع العثماني رمزا حيا لمجد الإسلام وعظمته أنتجته تلك الجهود المشتركة المشكورة التي بذلها علماء الدين وحكام الدولة .

---

(١) انظر الأتراك العثمانيون وحضارتهم لبروكلمان: ٣/٨٠-٩٢ من مجموعة تاريخ الشعوب الإسلامية تعريب الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي .

(٢) المرجع السابق: ٤٤- ٤٧ وإستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية لبرناد لويس مع تعليقات الدكتور سيد رضوان علي: ١٨٥ - ١٩٣ .

(٣) عجائب الآثار في التراجم والأخبار للعلامة الجبرتي: ١/٢١ وانظر أيضا كتابه بالاشتراك مع الشيخ حسن العطار مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس: ١٦ .

(٤) The Emergence of Modern Turkey, Bernard Lewis, London Edition 1968 Page 13 وكتاب له أيضا إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية: ١٧٧ .

المبحث الثالث

في الحالة العلمية

لقد ازدهرت الحركات العلمية في ظل الدولة العثمانية طوال القرون ، وتركت بصماتها بارزة واضحة في جميع الميادين العلمية . وكان سلاطين الدولة يحرصون على العلم وأهله حرصا قلما نجد له نظيرا في التاريخ .

ولا شك أن كتب التراجم هي من أهم المراجع للتعرف على الحركات العلمية، ولم يبدأ وضعها إلا بعد قيام الدولة العثمانية بمائتين وخمسين عاما وعرفت في أدبيات التاريخ العثماني باسم «الشقائق النعمانية وذيولها» . وقد ظهرت أولى ثمرات هذا النوع من التأليف مع الكتاب الذي ألفه بالعربية العلامة «عصام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى» المعروف بـ«طاش كبري زاده» المتوفى عام ٩٦٨هـ/١٥٦١م ،[١] وعرف باسم «الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية» . وكان هذا حدثا هاما في تاريخ الثقافة العربية كما قال حقا الدكتور محمد حرب أحد المتخصصين المعاصرين في التاريخ العثماني[٢] .

ولقد أعجب الناس كثيرا بهذا الكتاب ولقي استحسانا عظيما بينهم ، مما حدا «بنوعي زاده عطائي» أن يضع له ذيلا بالتركية سماه «حدائق الحقائق في تكملة الشقائق» . ثم تبعه «عشاقي زاده إبراهيم حسيب أفندي» فوضع ذيلا عليه سماه «عشاقي زاده ذيلي» ، غير أن «شيخي محمد أفندي» لم يرض بهذا العمل فكتب هو ذيلا سماه «وقائع الفضلاء» ، ثم جاء من بعد ذلك «فندق ليلي عصمت أفندي»

---

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٣٥٢/٨ ، ٣٥٣ ، الشقائق النعمانية لطاش كبرى زاده: ٣٢٥-٣٣١ ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة: ٣٠٨/١ .

(٢) انظر كتابه القيم العثمانيون في التاريخ والحضارة: ٣١٧ وما بعدها .

وكتب ذيلا آخر سماه «حدائق الشقائق في تكملة أهل الحقائق»[1] ، وما إلى ذلك من الذيول التي يتجاوز عددها أكثر من عشرة ذيول .

كانت اللغة العربية سواء قبل الحكم العثماني للبلاد العربية أو بعده هي لغة الثقافة والأدب والعلوم عند العثمانيين ، كتبوا بها كل شيء من كتب الفقه أو العقيدة أو التاريخ . واصطلاحات العلوم العثمانية كانت كلها عربية ، درسوا بها كافة العلوم في جميع المعاهد التعليمية من أولها إلى آخرها ، حتى أهملوا لغتهم التركية . واشتقوا من العربية اصطلاحات علمية كثيرة في حين أن العرب تشتق هذه المصطلحات من لغات أوربا [2] .

وقد أنشئت المدارس والمعاهد الدينية في مختلف أنحاء البلاد . فقد أنشأ الفاتح نفسه مدارس «صحن ثمان» ؛ وهي المدارس الثمانية المعروفة التي كانت ملحقة بمسجد «محمد الفاتح» في «إستانبول» ، حيث أقيمت أربعة منها شمالي الجامع والأربعة الأخرى جنوبه . وكانت نواة لتطوير المؤسسة العلمية في الدولة . وجعل من «إستانبول» واحدة من أهم مراكز العلوم في العالم الإسلامي . وكان جامع الفاتح في عاصمة الخلافة بمثابة الجامع الأزهر في القاهرة على حد تعبير شيخ الإسلام مصطفى صبري أو أن هذه المجموعة من الجامع والأجهزة التعليمية والتربوية شكلت نوعا من المدينة الجامعية على ما يقول برناد لويس المستشرق [3] .

وكان الطلاب آنذاك يتوجهون بنصيحة من أساتذتهم إلى مراكز العلم المعروفة في العالم الإسلامي مثل القاهرة وسمرقند وبخارى وماوراء النهر وبغداد ودمشق

---

(١) كشف الظنون لحاجي خليفة: ١٠٥٧، ١٠٥٨، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة : ٣٣/١، ٣٩٧، ٦٠٤، ٣ / ١١٦، ١٣٩، ٢٣٠ والدولة العثمانية تاريخ وحضارة ، ترجمة صالح سعداوي : ٢٧٩، ٢٨٠ .

(٢) العثمانيون في التاريخ والحضارة : ٣١٢ .

(٣) دراسات في التاريخ العثماني للدكتور سيد محمد السيد: ٧١، موقف العقل والعلم والعالم من كلام رب العالمين ورسله لشيخ الإسلام مصطفى صبري:٤/١ وإستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية لبرناد لويس : ١٣٦ .

فيستكملون دراستهم وكانوا يعرفون كل مدينة وما اشتهرت به من فروع العلم . وقد كثرت أيضا وفود العلماء على البلاد العثمانية . ومن هذه الناحية تميز عصر السلطان «مراد الثاني» بظاهرة مختلفة تماما ؛ إذ تشكلت آنذاك «مشيخة الإسلام» (عام ١٤٢٥م) وأقيمت المدارس الكبرى في أدرنة وبروسا وغيرهما من المدن ، كما تقدمت التيارات العلمية والصوفية كثيرا . فنقل هؤلاء العلماء الذين تربوا على أيدي فحول العلماء مثل سعد الدين التفتازاني (المتوفى عام ٧٩١هـ / ١٣٨٩م) والسيد الشريف الجرجاني (المتوفى عام ٨١٦هـ / ١٤١٣م) التيارات العلمية والفكرية والمجادلات الفلسفية في الأوساط التي جاءوا منها إلى ديار العثمانيين ، مما ساهم في إحداث نهضة علمية ملموسة[١] .

والجدير بالذكر هنا أن الدولة العثمانية كرست اهتمامها البالغ لنظام الوقف الإسلامي ، الأمر الذي ساهم في تنشيط حركة التأليف والنسخ من جهة وإرساء قواعد العلم والكتابة في الجماهير الواسعة من جهة أخرى ، مما سنح لكثير من الأهالي فرصة الانخراط في نظام التعليم والدراسة المدعومة من قبل الدولة ، الأمر الذي ترتب عليه تأسيس مكتبات عامة تابعة للمدارس والمساجد والزوايا بل ومكتبات خاصة ، ليس في المدن والمراكز الكبرى فحسب بل في القصبات الصغيرة وحتى في القرى البعيدة . وخير دليل على ذلك وجود نسخ كثيرة لبعض المخطوطات في بعض هذه المكتبات[٢] .

هذه صورة موجزة عن الحياة العامة بجوانبها المختلفة خلال القرن الذي عاش فيه كل من المولى «خضر بيك» ـ صاحب القصيدة النونية ـ «والمولى الخيالي» ـ شارح القصيدة النونية ـ ، وننتقل الآن إلى الحديث عن حياتهما .

---

(١) الدولة العثمانية تاريخ وحضارة ترجمة صالح سعداوي: ٢٨٤ .

(٢)انظر مقدمة لفهرس المخطوطات العربية والتركية والفارسية والبوسنوية في مكتبة الغازي خسرو بيك في سراييفو .